قسم العربية، جامعة كاليكوت، كيرالا ISSN 2278-764X

مجلّة كاليكوت
KALIKOOT

المجلد الثاني عشر - العدد الثاني: مايو - أغسطس ٢٠٢٢

الثقافة الهندية في رحلة ابن بطوطة

بلال أحمد لون، باحث

د/ إرشاد أحمد مير، أستاذ المساعد، الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا أونتبوره بلوامه، كشمير

المقدمة:

كانت الرحلة تعد جزءاً هاماً لانعكاس المجتمع العربي ، ولم تعن باكتشاف الأرض وحسب، وإنما ظل همها اكتشاف الإنسان الآخر، وإعادة اكتشاف الذات، في الوقت نفسه، فلقد ساعدته طبيعة البيئة التي عاش فيها على تغيير الفضاءات والأمكنة بحثاً عن الماء والكلأ، حيث كانت الحاجة والرغبة ملحتين للانطلاق نحو آفاق جديدة لمعرفة الجديد واكتشاف الآخر. ومع مجيء الإسلام واتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الفتوحات، أضحت الرحلة عنصراً حيوياً لارتباطها بعديد من الأغراض والأهداف الدينية كالحج، ونشر الدعوة، وطلب العلم وزيارة الشيوخ، ومجالسة والعلماء.

وقد عني الباحثون بأدب تلك الرحلات العربية القديمة، حتى باتت أسماء هؤلاء الرحالة أمثال ابن بطوطة وابن جبير وابن فضلان أيقونات/تمثال تستدعيها الذاكرة الشفاهية باستدعاء ذلك النوع الأدبي، لكن الرحلة العربية إلى العالم، على نحو عام، وإلى الهند بشكل خاص لم تتوقف عند القرون الماضية فقط بل كان لا يزال يجهد الرحال لقطع هذه المسافة العظيمة لتصوير أحوال المجتمع العربي و غير العربي ولذلك اخترت هذا الموضوع كى أركز في هذه الورقة على "الثقافة الهندية في ضوء رحلات ابن بطوطة"

ومن هذا المنطلق، كثرت الرحلات وتنوعت خاصة في الأماكن البعيدة عن الحجاز، وقام بها رحالة مختلفون في الأفكار والمواقف من مغرب العالم الإسلامي ومشرقه، غير أن قليلا منهم هم الذين استطاعوا الوصول إلى أصقاع قصية بعيدة عن شبه الجزيرة العربية، وتركوا آثاراً دقيقة عما اكتشفوه هناك من خصوصيات وعناصر شديدة الإدهاش. ومن هؤلاء الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي استطاع أن يرصد في كتابه لوحات وصفية ضافية، ودقيقة حول واقع الهند خلال القرن الرابع عشر. حيث شكل كتابه نقطة مفصلية في التعرف على هذا القطر البعيد بعاداته وتقاليده وطقوسه، وأحداثه الخاصة، ودفعة في سبيل تعويض ما ساد حوله من معارف تخييلية ضبابية في أعين أدباء العرب وكتاباتهم.

يقول الإمام الشيخ حسن العطار وهو شيخ الجامع الأزهر في عصر محمد بن علي

باشا، "إن السفر مرآة الأعاجيب، وقسطاس التجاريب"، وليس أكثر برهانا من رحلات الهند على هذه المقولة التي تحمل الدهشة صنوا للعلم. فالرحلة هي "عين الجغرافيا المبصرة" كما يقول العالم الجغرافي المصري صلاح الشامي، الذي يعتبر الرحلة جزءا من حركة الحياة على الأرض. ومن ثم لا يمكن النظر إلى الحياة الطبيعة خارج سياق الرحلة، ولا يمكن الوثوق بها خارج إطار توثيقها، وهو توثيق يتفاوت بين جفاف العلم وثراء الأدب، ولكنه يجمع بينهما على نحو كبير.

لهذا سنحاول من خلال هذا البحث مناقشة الأسئلة العالقة حول تمثلات العرب عن الهند في الكتابات السابقة لمؤلف "تحفة النظار في غرائب الأمصار"، واللاحقة له لرصد التحويلات التي أحدثتها الكتابة الرحلية عن الهند لدى ابن بطوطة من صدمة الاكتشاف، وتعديل المفاهيم والرؤى، حيث سنسعى إلى رصد مسار هذه التمثلات للثقافة الهندية عبر الكتابات الرحلية العربية، مع المقارنة بين ما أنتج منها في السابق، وانبثق عن رؤى مواكبة لفترات قديمة معينة من تاريخ الهند، وما أنتج حديثاً بعد الزخم المتراكم من الرحلات والكتابات الرحلية الحديثة والمعاصرة حولها. جاعلين من مؤلف ابن بطوطة محوراً أساساً لرصد ثوابت هذه التمثلات وتحولاتها عبر النصوص والزمن بهدف تقديم سيرورة صورة متكاملة عن الهند بعيون أدبية عربية.

نبذة عن حياة ابن بطوطة:

أبو عبدالله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، المعروف بابن بطوطة، من مدينة طنجة، وهي إحدى مدن المغرب العربي، ولد في فبراير ، ١٣٠٤م. استغرق تسعة وعشرين سنة ونصف السنة في رحلاته، وزار كل بلاد العالم المعروفة في عصره، وكان من بين الرحالة المسلمين، وأميرهم كما تلقبه جمعية (كمبردج) في كتبها وأطالسها: Prince of moslems travellers.

الرحلة إلى الهند قبل ابن بطوطة

شكلت الهند من زمن سحيق محط أنظار الرحالة العرب الباحثين عن المغامرة واكتشاف الآخر، عبر الانسياق وراء الرغبة العارمة في زيارة البلدان البعيدة، والتي تمثل في ذاتها موضوعاً ثرّاً للخيال والأسطرة، حيث ملأت الفراغات الكبرى في الذاكرة العربية إزاء هذه المناطق البعيدة المختلفة عِرقاً ولغة وديناً "فتكاد الهند والصين تستأثران بموقع استثنائي، بين كل الصور التي شكلها المسلمون عن الشعوب خارج دار الإسلام."

ومنذ هذه الرحلات المبكرة كانت النظرة التقديرية الخاصة لهذا البلد الشرقي النائي هي المهيمنة، حيث يقول عبد الله إبراهيم: "ظهرت

الهند في أعين المسلمين وكتاباتهم مملكة الحكمة والعدالة، ويستند هذا الحكم إلى معاينة يصعب التشكيك فيها ونقضها."

فقد انبهر الرحالة والجغرافيون العرب والمسلمون بما شاهدوه في هذه البلاد من مظاهر الحكمة والعدالة وحسن التنظيم، فآثروا تدوينها والتعليق عليها والتنبيه على أبعادها العميقة تشبهاً بها، ورغبة في محاكاتها وتقليدها في البلدان الأخرى، ولم يحل الاختلاف في الدين أو اللغة والعادات، دون أن يؤكدوا قيمة هذه المشاهدات وأهميتها في بلاد أجنبية، استطاعت أن تنهض بمعايير ذاتية في تدبير شؤونها عزّ نظيرها في شعوب وأمم أخرى؛ فهذا المسعودي (ت: ٣٤٦/٩٥٨م) مثلاً يشير إلى ذلك في قوله:

"ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه، أن الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح والحكمة..."، ويستطرد في تفسير ذلك وذكر بعض كتبهم المأثورة، يقول: "وجمع الحكماء فأحدثوا في أيامه (البرهمن الأكبر) كتاب السند هند، وتفسيره (دهر الدهور)، ومنه فرعت الكتب" [من أخبار الهند من كتاب مروج الذهب، ص: ٥٠].

الثقافة الهندية في رحلة ابن بطوطة

قام ابن بطوطة برحلته إلى الهند قادما من أفغانستان ودون أن يشكو من العوز أو الضائقة لأن الأمة الإسلامية هي التي قامت بنفقات رحلته، وتولت كل شنونه بفضل ترابط هذه الأمة واهتمامها بأبناء السبيل الذين أوصي بهم في القرآن الكريم مرة بعد مرة.

دخل الهند وهو ميسور الحال كثير المال والخيل والخدم بفضل ما اجتمع لديه من عطايا الملوك والأمراء، أنه فقيه ورجل دين، وهذه الصفات جعلت الرجل يدخل الهند شخصية محترمة مرموقة يصاحب الملوك والأمراء وذوي السلطان ويخدم ويفوز بعطاياهم[١].

مكث ابن بطوطة في الهند قرابة عشر سنوات، ودون عنها كثيرا من العلومات، كما حصل على التوظيف الرسمي قاضيا للمالكية في (دلهي)، وصاهر أسرا معروفة هناك. وقد شكلت رواياته عن الجوانب السياسية والحضارية، أهمية كبيرة لكل من يتصدى للبحث عن تاريخ الهند في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. كما تعد رحلاته من أهم جسور التواصل مع الحضارة الهندية الأصلية العريقة.

تزوج ابن بطوطة في الهند وأنجب البنين والبنات في غضون السنوات الثمانية التي قضاها بالهند فتزوج من الهند "مباركة" وأنجب منها ولده أحمد الذي تركه عند سفره في الهند، كما تزوج من "حورنسب" وأنجب منها بنتا، يقول "كان الشريف إبراهيم المعروف

[١] - حسين مؤنس، إبن بطوطة ورحلاته، دار المعارف ، القاهرة،

بالخريطة دار، هو صاحب الكاغد والإقلام بدار السلطان واليا على بلاد حانسي وسرستي...وولدت مني بنتا ولا أدري ما فعل الله فيهما"[١].

يعد رحلة ابن بطوطة إلى الهند من أهم مصادر تاريخ الهند الإسلامية في ذلك العصر، كمصدر لتاريخ العلاقات الدولية، ودراسة الرحلة وإظهار قدرها كوثيقة تاريخية واجتماعية وحضارية ولغوية ذات قيمة كبيرة، وأنه يكاد يكون العربي الوحيد الذي كتب عنه، وبقية معلوماتنا عن آل تغلق فمصدره مراجع فارسية وهندية ثم إنجليزية.

عندما زار ابن بطوطة جنوب الهند كانت أغلب منطاقها لم يزل محرومة من الحضارة الإسلامية، واللغة الهندية واللغات المحلية منها التاميلية والتليجو والماليالم من اللغات السائدة فيها.

قام ابن بطوطة برحلاته في عصر انحسرت فيه الأخطار على أمة الإسلام فقد انكسرت الموجة الصليبية في المشرق على يد صلاح الدين الأيوبي ثم جاء المماليك فأكملوا عمل صلاح الدين، وكان الإسلام يتقدم حثيثا في الهند وشرق آسيا وجنوبها، أي أن ابن بطوطة في العالم الإسلامي في عصر إشراق وأمل، وهو عصر الدول العطمى الإسلامية الأخيرة وهي سلطنة مغول الهند.

يعتبر تاريخ ابن بطوطة لدولة آل تغلق وحكمها للهند، هو المصدر العربي الوحيد الذي وصل إلينا وباقي معلومات عن الهند الإسلامية في ذلك العصر، فمصدره مراجع فارسية وهندية وأردية وإنجليزية. وتاريخه قائمة على مشاهدته للواقع وما سمعه من أناس يثق بهم حضروا الواقعة وقصوها عليه، ويتبع في نقل الواقعة منهج رواية الحديث النبوي، مثل يقول : "حدثني فلان.." ، وقد اعترف المؤرخون في المصادر الأردية والهندية بالدقة التي التزم بها ابن بطوطة في نقل الواقعة التاريخية، منهم المؤرخ الهندي المشهور ايشوري برشاد وغيره.

ذكر ابن بطوطة الأسماء الأعجميةبضبط التي وردت في النص بدقة ليسهل قراءتها على القاري العربي، كأن يقول: "وضبط اسم غياث الدين تغلق، بضم التاء المعلوة وسكون الغين المعجم وضم اللام وأخره قاف"، حتى لا يخطئ أحد في قرائتها.

وقد قدم ترجمة دقيقة بقدر الإمكان لكل كلمة أعجمية وردت في النص بعد ضبطها كأن يقول: "القرونة: هم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك"، وقد نشأت هذه القومية من تزواج بين أب تركي جغتاني وأم سندية، ويقول: "كان كلوانيا له، والكلواني هو

[١] - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة،

راعي الخيل" وكلواني كلمة أردية تعنى سايس الخيل. ويقول: "فرتبه في البيادة...وهم الرجالة". وأورد محمد قاسم هند وشاه في كتابه "تاريخ فرشته" عن ابن بطوطة عند حديثه عن ظهور السلطان غياث الدين تغلق على مسرح التاريخ حيث يقول: "ارتقى غازي ملك تغلق عرش دهلي في شعبان من عام ١٣٢١م باسم السلطان غياث الدين تغلق ،وهو تركي الأب من قوم جغتأي زطي الأم من البنجاب، بدأ حياته جنديا بسيطا فظل يرتقي بجده واجتهاده حتى بلغ مرتبة القيادة"[١].

لم يكن ابن بطوطة تاجرا ولا مؤرخا ولا جغرافيا، بل استطاع أن يوازن بين عنايته بوصفه فقيها وعالما دينيا، كما له خبرة واسعة لبيان الأمور الأخرى المتعلقة بمختلف جوانب الحضارة والحياة..

ينقل لنا ابن بطوطة لا ما رآه وعاشه كله أثناء إقامته بالهند، (وهذا أمر يقارب المستحيل، وكان سيحتاج إن فكر فيه إلى مجلدات لا تنتهي)؛ وإنما انتقى ما اعتبره مهماً، وذا دلالة للمتلقي في تلك المرحلة. لهذا التقط الإشارات العديدة حول القضاء والعبادة والزهد والولاية الدينية والتصوف والتجارة، والسلطة بالدرجة الأولى، بينما أتت صورة الشعب والفئات العريضة من الأمم التي عايشها أقل حضوراً، وأقل ذكراً، ولا يلجأ إليها إلا عندما يفتقد الشاهد في محيطه السلطاني والأميري.

ويتحدث ابن بطوطة عن جامع دهلي الذي جدده غازي ملك تغلق والد السلطان محمد تغلق وصفا دقيقا، وهو في الأصل مسجد القطب الذي بناه قطب الدين أيبك في موضع (بدخانة) أي معبد بوذي (أصنام) وبنى لنا المئذنة المعروفة باسم قطب مينار، ويصف ابن بطوطة هذا المنار الذي يسميه صومعة وصفا دقيقا وهو أول وصف عربي بين أيدينا عن هذه المئذنة الهائلة التي لا نظير لها في الدنيا[٢].

كان ابن بطوطة حريصاً على الوصف الدقيق لمظاهر الحضارة، والدرجات العليا من حسن التنظيم والتدبير بإعجاب دفين، وقد اشتملت رحلته للهند على جوانب حضارية عديدة لنواحي الحياة الإجتماعية والسياسية المختلفة، وهنا نتناول المجالات الحضارية للرحلة، وهي : الأعلام الجغرافية والشخصية والقبائل والسلالات والأجناس وغيرها، كما ذكرنا أن ابن بطوطة تزوج في الهند وأنجب البنين والبنات بهن، وتولى القضاء وسفارة ملك الهند إلى امبراطور الصيبن، وهذا يدل على بعد تلك الحضارة عن التعصب العرقي.

جسد ابن بطوطة برحلته للهند جسرا متينا من الحوار بين الحضارة الإسلامية

[١] - محمد يوسف : علاقات العرب التجارية مع الهند، القاهرة، ب. ت.

[٢] - حسين مؤنس ، ابن بطوطة ورحلاته

والحضارة المختلفة، وهو يتعلم اللغة بها القوم الذين ينزل بساحتهم .. وقد بدأ يفهم اللغة الفارسية قبل أن يتعلم التركية، لأن الفارسية كانت منتشرة في المنطقة كلها حتى في بلاد الصين ويكتب اللغتين بحروف عربية، ووجدنا هو يردد بعض الكلمات التي تطرق سمعه بالفارسية والتركية والهندية (الأردية).[١]

وقد اهتم ابن بطوطة في الهند بالنقوش واعتبرها مصدرا من مصادر رحلته فكان يقف على كل ما هو مكتوب على لوحة خشبية أو قطعة من حجر أو رخام ويسجلها ويحفظها، وقد أمست بالنسبة لنا اليوم بمثابة وثيقة حيث تؤكد ما كان يرويه الرجل قبل نحو من سبعة قرون. كما أخبر ابن بطوطة وهو في الهند بأنه قرأ على مقصورة الجامع في ملتان : "إني قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة فهزمتهم فحينئذ سميت بالملك الغازي"[٢].

كما نقل ابن بطوطة ما كتبه جلال الدين أحسن شاه على الدنانير والدراهم بعد أن أدعى الملك نفسه:"وكان يكتب في إحدى صفحتي الدينار: (سلالة طه ويس أبو الفقراء والمساكين، جلال الدنيا والدين) وفي الصفحة الأخرى (الواثق بتأييد الرحمن أحسن شاه السلطان)".

ومن المظاهر الحضارية التي ذكرها ابن بطوطة خلال رحلته إلى الهند، مناهضة العنصرية من قبل بعض حكام الهند المستنيرين الذين حرموا في دولتهم استعمال كلمة (أجنبي) أو كلمة (غريب) واستعملوا بدلا منها كلمة (عزيز) والجمع (أعزة) وذلك لكل من قصدهم ورتبوا لهؤلاء الأعزة مكانة متميزة في المراسم والحفلات.

ويفضحه الإغراق في ذكر تفاصيل شأن تنظيم البريد، حيث يستعرض ابن بطوطة في مقطع طويل بدقة متناهية أنواعه وآلياته، وفعاليته في تحقيق التقارب بين أطراف البلاد الشاسعة، يقول: "والبريد ببلاد الهند صنفان: فأما بريد الخيل فيسمونه (أولاق)، وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال؛ وأما بريد الرّجّالة فيكون مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب... وترتيب ذلك أن يكون في ثلث ميل قريةٌ معمورة، ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة..."؛ وكأن هذا النقل الأمين يتغيى الاستفادة من هذه التجربة الناجحة واستنباتها في بلاده.

كما يحرص ابن بطوطة على تتبع مظاهر التنظيم في البلاط السلطاني والمدينة

[١]- سليم النعيمي: ألفاظ من رحلة ابن بطوطة مجلة المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٧٤م.

[٢] - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ٧٣/٣.

بمختلف مرافقها، فيكثر من الإشارة إلى فعل الترتيب في مقاطعه الوصفية، (ذكر أمير ملتان وترتيب حاله ٢٣٤/ ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك ٢٥٦/ ذكر ترتيب جلوسه للناس ٢٥٧/ ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره ٢٦١/ ذكر ترتيب الطعام الخاص ٢٦١/ ذكر ترتيب الطعام العام ٢٦١/...).

ولا يشذ عن هذه النزعة الخاصة الميالة إلى التنظيم حتى المقبرة نفسها؛ فللموت مكانة خاصة تعادل مكانة الحياة؛ يقول: "وعادة أهل الهند أن يُرتبوا لأمواتهم كترتيبهم بقيد الحياة، فيؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة، وهي مزينة، فرتبتُ أنا في هذه التربة بحسب ذلك، ورتبتُ من قراء القرآن مائة وخمسين... ورتبتُ من الطلبة ثمانين... فكان جميعهم أربعمائة وستين". وكان السلطان أمر أن يكون بها كل يوم اثني عشر منا من الدقيق ومثلها من اللحم... وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر وارد، وكان الغلاء شديداً فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبرهُ.

وهو يأتي على ذكر المقبرة في وصفه لطقوس ما بعد الوفاة "وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه، ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير والأزاهير... ويصبون على القبر الفواكه واليابسة وجوز النارجيل، ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف ويقرأون القرآن..." [ص: ٢٩٣].

وتستوقفه البروتوكولات السلطانية في أكثر من مناسبة، حيث يرى فيها فرصة لإبراز هذا الإعجاب الكبير بالنظام الذي يميز أهل الهند في تصريف مختلف شؤونهم الرسمية منها كالخروج للرعية وسياسة أمرها، أو الخروج للقنص، وطقوس العيد "فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل، وقد مهد له على ظهره شبه السرير (الوصف بالمقاربة)، ولبس الخطيب السواد، وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون أمامه.." [ص: ٢٩٥].

كما يرصد عادات الضيافة والكرم في الثقافة الهندية في أكثر من موضع، بل إنه يخص باباً بالحديث عن أخبار السلطان في الجود والكرم، يقول: "وإنما أذكر منها ما حضرتهُ وشاهدتُهُ وعاينتُهُ، ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى به شهيداً، مع أن الذي أحكيه مستفيض متواتر، والبلاد التي تقرب من الهند كاليمن وخراسان وفارس مملوءة بأخباره يعلمونها حقيقةً" [ص: ٢٦٢]، حيث يركز على هذا البعد في نظرته للآخر، مما يجعل القارئ يبني تمثلات إيجابية عن ثقافة الهند، وعادات أهلها.

كما ذكر ابن بطوطة العديد من المجالات الحضارية الخاصة بالقبائل والسلالات والأجناس والدول والفرق منها على سبيل المثال:

البراهمة ، والأعزة، واصحاب البريد، والتجارة، والأصحاب الأخبار، والجلادون، والجلادون، والحجاب، والزقاقيون، والفراشون، والشاميونن، وغيرهم وهنا نذكر بعض منهم:

أ- **البراهمة:** جمع عربي لكلمة "برهمن" أي كاهن الهندوس، وقد تحدث ابن بطوطة عن طقس من طقوس الهندوسية ومباركة البراهمة له وهو "الساتي/ Sati System" حيث تقبل زوجة الهندوسي المتوفي على حرق نفسها طواعية مع زوجها تقربا لألهتهم ولنيل أسرتها العزة والشرف في الدنيا. ثم صدر في الهند قانون من قبل حكومة البريطانية في عام ١٨٢٩م يمنع حرق الزوجات لأنفسهن وفاء لعهد الزوج. ويقول ابن بطوطة: "...رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا، فسألتهم:: ما الخبر؟ فأخبروا أن كافرا من الهند مات وأججت النار لحرقه، وامرأته تحرق نفسها معه، ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه، وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والآبواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كبار الهنود"[١].

ب- **الأعزة:** الأعزة جمع عزيز ويعتبر هذا اللفظ من الكلمات الحضارية التي ينبغي أن نقف عندها ونحن نقرأ بلاد السند فقد ظل الغريب محل توصية من لدن سائر الذين كتبوا عن معاملة الناس حتى ولو كانوا غير مسلمين... ونحن نعلم أن اين السبيل من الأصناف التي تصرف لهم الزكاة والطريف الجميل تشجيع الغرباء على استثمار أموالهم بل إن سلطان الهند يمكنهم بما يساعدهم على نفاق تجارتهم وربحهم، وكانوا في الهند يطلقون لقب الأعزة على هؤلاء الغرباء إنياسا لهم. فيقول ابن بطوطة: "ومن عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة، ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصهاره غرباء، ونفذ أمره بأن يسمى الغرباء في بلاده بالأعزة، فصارلهم ذلك اسما علما، ولابد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها إليه، ويقدمها وسيلة بين يديه، فيكافيه السلطان عليها بأضعاف

[١] - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ٣/١٠٠

مضاعفة، سيمر من ذكر هدايا الغرباء إليه كثير"[١].

ت- **الكيوانية والكهارين والدوادوية:** تحدث ابن بطوطة خلال رحلته إلى الهند عن العديد من الفرق والمهن الحضارية توجد في الهند، ومنهم الكيوانية والكهارين والدوادوية، ويقول: "اشتريت الصيون، وهو الذي يظلل به داخل السراجة، ويرفع على عمودين كبيرين ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم، ويقال لهم: الكيوانية. والعادة هناك أن يكترى المسافر الكيوانية...ويكترى الكهارين وهم الذين يحملون أواني المطبخ ويكترى الدوادوية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل"[٢].

- **خونحة:** عندما ذكر ابن بطوطة الطعام يقول: "وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجه أي مائدة صغيرة"

- **السين والسبك:** السين نوع من القلال الذهبية ذكرها ابن بطوطة عند تناوله للطعام في دار أم السلطان، ويقول: "ثم أتوا بالطعام وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السين بضم السين والياء آخر الحروف، وهي مثل القدور، ولها مراقع من الذهب تجلس عليها، يسمونها السبك بضم السين وبضم الباء الموحدة"[٣]

- **الأسلحة:** كما وصف الأسلحة التي استخدمت في الحروب آنذاك مثل : الترس والتركش والترسة والدروق الدروع والرماح والقتارة والمجانيق، وغيرها، ووصفها كل واحدة منها بتفصيل، كما ذكر النيزة وهو نوع من الرماح فيقول: "فإن كان عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيرزة، بكسر النون وفتح الزأي، وبعد أن يجعل على ثيابه فوطة حرير توقيا من الدم"[٤]

ث- الأدوات والآلات والوسائل والمراكب: ذكر ابن بطوطة خلال رحلته الأدوات والآلات والوسائل والمراكب المستخدمة في الهند في ذلك الوقت، مثل: آلات قطع القصب والأصقالات، والأعمدة والأهورة والطريد وهي من أنواع المراكب والجل وهو غطاء الحيوان، والرعادات

[١] - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ٧٥/٣
[٢] - السابق ، ٢٧٣/٣.
[٣]- السابق، ٢٢٥/٣.
[٤] - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ٣/ ١٥٩.

(المجانيق)، والدولة أي المحفة، وخونجة مائدة من النحاس، والسبك والسين (نوع من القلال) والمذبة والنقارة وغيرها:

- عندما سفر إلى نهر السند يقول : "وكان للفقيه علاء الملك في جملة مراكبة مركب يعرف بالأهورة، بفتح الهمزة والهاء وسكون الواو وفتح الراء، وهي نوع من الطريدة عندنا إلا أنها أوسع منها وأقصر، وعلى نصفها معرش من خشب يصعد له على درج، وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الأمير ويجلس أصحابه بين يديه"[١].

كما ذكر ابن بطوطة الأنهار والأودية والبحيرات التي شاهد أثناء سفره في الهند منها نهر آب حيات (ماء الحياة) ونهر الجون (جامنا)، ونهر صاغر، ونهر السند (بنج آب)، ونهر الكنك (الجانج)، ووادي أفغان بور، ووادي آش، وغيرها.

عندما يذكر نهر جامنا وهو من أنهار الهند، وأحد الأنهار المقدسة لدى الهندوس، وذكره في مواضع عديدة من رحلته للهند، وعند ذكر قبر السلطان رضية يقول: ".. وقبرها الآن بزار ويتبرك به وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجون على مسافة فرسخ واحد من المدينة"[٢].

الجواهروالحلى:

كما تحدث ابن بطوطة في رحلاته عن الجواهر والحلى التي شاهد خلال هذا السفر، منها أحجار الياقوت، والياقوت البدخشي، وأحجار الزمرد، وأساور الذهب، واللؤلؤ الفاخر وغيرها.

ذكر ابن بطوطة الأواني من الذهب والفضة عند السلطان في ذلك الوقت، فيقول: "عندما دخل عمال السلطان عليه بالهدايا كانت الأواني صنعت من الذهب والفضة...وكانت صينية مملوءة بأحجار الياقوت وبأحجار الزمرد وباللؤلؤ الفاخر". كما يقول عندما يخرج السلطان للعيدين تجهز له الفيلة للركوب عليها ويرفع عليها ستة عشر شطرا من الحرير مرصعة بالجوهر، قائمة كل شطر منها ذهب خالص، وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجوهر[٣].

[١] - السابق، ٣/ ٨٢-٨٤.

[٢] - رحلة ابن بطوطة،

[٣] - السابق، ١٥٧/٣.

كذلك وصف ابن بطوطة الزوايا والرباطات والقصور المنتشرة في كل مدن وقرى الهند، وكان هذا العمل أصهبا من الأخرى ومنها التي ذكرها في رحلاته زاوية امروها وزاوية ركن الدين بن بهاء الدين، وزاوية عثمان المرندي وزاوية كشلوخان، وقصر دار سرا، وقصر دولة خانة، والقصر الأحمر، وغيرها.

كما تحدث ابن بطوطة خلال رحلته إلى الهند عن الحيوانات المتنوعة التي توجد في الهند مثل: أم جبين، والبازي والبرزون (تنو)، والبغال، والدجاج، والطواويس والغزلان، والفيلة والكلاب، والمهارى وغيرها.ويقول ابن بطوطة عندما مر بنهر السند: "ولما أجزنا نهر السند..دخلنا غيضة قصب...فخرج علينا الكركدن، وصورته أنه حيوان أسود اللون، عظيم الجرم رأسه كبير، متفاوت الضخامة، ولذلك يضرب به المثل فيقال: الكركدن، رأس بلابدن..."[١].

وذكر ابن بطوطة العطور والبخور التي توجد في الهند ويضرب به المثل في الجودة، كما ذكر الطعام والشراب في الهند الإسلامية بالتنوع الوافرة، وقد وصف موائد الطعام والشراب وما حفلت به من لحوم وحلوى وخبز وفاكهة، زيت سمسم وغيرها كثيرة التي يستخدم الهنود حسب مراتب الناس، مثل مائدة السلطان تكون مختلفة من الناس العامة.

يعد ابن بطوطة فرد واحد الذي تحدث عن عادات أهل الهند في حياتهم الإجتماعية والسياسية والدينية والإقتصادية خلال رحلته، مثل: أخذ الضرائب، إعطاء الواشي أموال الذي وشى به إذا ثبتت التهمة وأوقاف المدارس والمساجد، وتعذيب المخالفين، وتمزيق الثياب حزنا على الميت، وتزرع الزراعة مرتين في السنة، وذبح البقر في الهند بخاط في جلدها ويحرق، ورجم الزانية وغيرها كثيرة شاهدها أثناء سفره إلى الهند، كما ذكر لباس الهنود التي تميز الشعوب، يعتز به ويعرف به بين الناس، فذكر الثياب التي كان الهنود يرتدونها في ذلك الوقت، وهي الثياب البيضاء للمسلمين، وثياب الحرير، والثياب الخانبالقية، وثياب القطن، وثياب الكمخا، والعمائم، والفوطة، والنعال وغيرها.

ومنها الفوطة من الملابس وهي مستعملة على نطاق واسع في جنوب الهند حتى الآن، كما كان ثياب الكتان المزركشة يلبسون الناس عندما اجتمعوا السلطان على قدر مراتبهم، وهكذا الملابس الأخرى.

[١] - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ٣/٧٥-٧٧.

النباتات:

وقد وصف ابن بطوطة خلال رحلته إلى الهند النباتات العديدة وصفا طريفا وهي البر، والإبنوس، أشجار وفواكه الهند، وأم غيلان، والحناء، والعدس، والفوفل، والكذور، والقصيل، والمنج، وغيرها، حاول ابن بطوطة أن يعرض صورة تلك الفواكه والنباتات للقارئ العربي بمقارنتها بما بلاد العرب من نباتات تشبهها أو تقترب من صورتها، يقول: "وليس هنالك من أشجار بلادنا شيئ ما عدا النبق [وهو ثمر السدرة] لكنه عندهم عظيم الجرم وتكون الحبة بمقدار حبة العفص، شديد الحلاوة، ولهم أشجار كثيرة ليس يوجد منها شيئ ببلادنا ولا بسواها! فمنها العنبة (المانجو) بفتح العين وسكون النون وفتح الباء الموحدة، وهي شجرة تشبه أشجار النارنج...[١]

خاتمة:

وفي الختام، نشير إلى أن معالم صورة الثقافة الهندية في الأدب الرحلي العربي منذ القديم، اتخذت أبعاداً إيجابية في الغالب، واتسمت بالإعجاب الكبير بخصوصية الحضارة الهندية، وما عرفته من رقي في الحكم والتنظيم والمعمار؛ فمنذ الرحلات الأولى التي وصلتنا (اليعقوبي... والمسعودي...) سجل الرحالة هذا الإعجاب بالتقاط مشاهدات تؤكد علو مكانة الهند في ميادين ثقافية شتى، مركزين على الطبقة الحاكمة والتجار، وهي الفئات التي شكلت محور التواصل المكثّف مع القدماء بما فيهم ابن بطوطة.

غير أن بعض الرحالات المعاصرة بدأت تنقل زوايا أخرى للهند مستمدة من مشاهدات الفئات الشعبية وطبيعة المجتمع الهندي في الواقع المعاصر بإكراهاته وتحدياته. بيد أنه يمكن التأكيد بنوع من الثقة أن المشترك بين هذه الأدبيات الرحلية قديمها وحديثها هو الاندهاش العميق الذي عبر عنه الرحالة في وصفهم للهند بلداً وشعباً وثقافةً، وإن اختلفت الزاوية ووجهات النظر ما بين القديم والحديث؛ فقد بقيت مركزية الإعجاب بالبلاد الموصوفة، والثقافة الممثلة لها جوهر الأدب الرحلي الواصف لها، فقام رصد التواصل بين الأنا والآخر في هذه النصوص الرحلية على التقدير والاحترام، والإعجاب والقبول، لا الرفض والشعور بالتباين والتضاد، يقول أنيس منصور: "فمشكلة الكتابة عن الهند تكمن في غناها الفاحش بما يدهش، ويكون جديراً بالكتابة، فكل خطوة في الهند عالم من المُدهشات، وكل لحظة أعجوبة".

[١] - ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ٣/٩٣-٩٤

المصادروالمراجع

المصادروالمراجع العربية:

-إبن بطوطة : رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار تحقيق عبد الهادي التازي. الرباط، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، دار الكتاب اللباني، سلسلة كتاب التحرير ١٦٦.

- الادريسي (الشريف) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبوعات المعهد الشرقي، نابولي ١٩٨٢-١٩٨٤م.

- بزرك بن شهريار: عجائب الهند، مخطوط في الكلية الشرقية ، جامعة البنجاب، لاهور.

- البيروني (أبو الريحان) : تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة للعقل أو مر ذولة، طهران، (ب.ت).

- الجاحظ: مخر السودان على البيضان، القاهرة (ب.ت).

- جورجي زيدان: اللغة العربية كائن حي ، دار الهلال، القاهرة، ١٩٦٧م.

- حسين مؤنس (دكتور) : ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م.

- محمد يوسف : علاقات العرب التجارية مع الهند، القاهرة ، (ب.ت).

المصادروالمراجع الأردية:

- رئيس احمد جعفري: سفرنامه ابن بطوطة، نفيس أكاديمي، كراشي، ١٩٦١م.

Kalikoot

Quarterly Arabic Journal

Vol.12 Isue 2, May - August 2022

The Department of Arabic
University of Calicut

Kaalikoot
11201022